المحاضرة السادسة

استراتيجيات البحث الاجتماعي الأساسي تصميم البحث التاريخي ونماذج على تنفيذه

تمهيد :

مع التحولات الفكرية التي يشهدها العلم الاجتماعي في مطلع القرن الحادي والعشرين، والانتقالات التي وجهت إلى الوضعية والبحث الكمي ، تزايد الاهتمام بالبحث الكيفي باعتباره وسيلة للتغلب علي هذه الانتقالات- وقد أعيد الاهتمام بالبحث التاريخي باعتباره نموذج خالصا علي البحث الكيفي في العلن الاجتماعي ، واحتل البحث التاريخي وضعا متميزا بين غيره من البحوث الاجتماعية الأخرى ، وتأكدت أهميته وأهدافه في فهم الظواهر الاجتماعية.

ويحاول البحث التاريخي الاستعانة بالمنهج التاريخي وما يتطلبه من إجراءات خاصة الاعتماد علي تحليل الوثائق التاريخية، كمصدر أولى للبيانات وبعد التأكد من مصدقتيها، ثم تناول مقولة الزمن و تحقيب التاريخ ، وإجراء المقارنات اللازمة، وقد تداخل عمل دراس التاريخ، أو المؤرخ مع ما يقوم به القائم بالبحث التاريخي في العلم الاجتماعي ، ويحاول الاستعانة بالمنهج التاريخي في البحث.

ولذلك برزت هناك حاجة إلي الوقوف علي الكيفية التي يمكن بها وضع تصميم منهجي مناسب للبحث التاريخي في العلم الاجتماعي تجنبا لهذا التداخل، والوقوف علي الحدود الفاصلة في استخدام المنهج التاريخي بينهما.

وبناء علي ذلك يحاول الفصل الحالي توضيح أبعاد هذا التصميم والإشارة إلي بعض النماذج علي تنفيذه في الواقع ،وإلقاء الضوء علي الإجراءات المنهجية اللازمة لوضع تصميم مناسب للبحث التاريخي، بدءا بصياغة مشكلة البحث التاريخي في صورة فروض عملية ،ثم ضرورة تحديد مدي زمني للبحث ، و تحقيب هذا المدى إلي فترات تاريخية فرعية ، وعملية التنقيب عن البيانات والمادة التاريخية والتأكد من مصداقيتها ،ثم استخدام أسليب التحاليل الكيفي في معالجة بيانات البحث التاريخي ومناقشة مجموعة النماذج المتاحة على تنفيذ البحث التاريخي في الواقع استناداً إلى متطلبات تصميم البحث التاريخي ، والكشف عن إيجابياتها وسلبياتها ، وربما أسهم ذلك في تقليل احتمالات الوقوع في الأخطاء المنهجية الشائعة والتي أخذت تتزايد بين الباحثين في الآونة الأخيرة عند إجراء بحوث تاريخي .

أولاً: البحث التاريخي بين البحوث الاجتماعية الأخرى :

لاشك أن تنوع البحوث الاجتماعية ، وتباين حلقاتها ، قد تزايد في الآونة الأخيرة على نحو ملحوظ ، ربما ليتنوع قضايا البحث ومشكلاته ، أو لتطور أساليب البحث وأدواته ، أو اكتشاف قواعد منهجية جديدة ، أو إلى كل ذلك مجتمعاً.

ولعله من المنطقي قبل الدخول في تفاصيل الكيفية التي يمكن بها تصميم البحث التاريخي باعتبارها واحداً من أشهر أنواع البحوث وأهمها ، وأن نحاول تسليط الضوء على طبيعة العلاقات بين هذه الحلقة في البحث وبين غيرها من حلقات البحث الاجتماعي الأخر .

فالبحث التاريخي يعد من أقدم أنواع البحوث الاجتماعية على الإطلاق ، فمنذ ما يزيد على سبعة قرون ، ذهب عبد الرحمن ابن خلدون إلى القول : " أعلن أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة ، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين ...وأعلم أنه لما كانت الحقيقة للتاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم .. ولما كان الكذب متطرقاً للخبر كان ضروريا تمحيص الخبر على تميز الصدق من الكذب.. " ، وقد انتقل ابن خلدون من رصد مصادر الكذب في اخبار المؤرخين وكيفية تجاوزه ، إلى استخدام الحقائق التاريخية في دراسات الاجتماع

الإنساني وانتهى إلى عدة قوانين من أهمها قانون الأطوار الثلاثة للمجتمع الإنساني .. ومنذ ذلك الوقت أخ الباحثون في عالم الاجتماع يتوسعون في استخدام البحث التاريخي ، لما يضيفه من ثراء في فهم الظواهر الاجتماعية .

والبحث التاريخي يمثل نموذج البحث الكيفي الأصيل ، لأنه يختار مشكلاته نوعية ويعتمد على مادة كيفية ، ويستعين بأساليب التحاليل الكيفي دون سواه في معالجة هذه المادة ، وفى نتائجه يميل إلى الطبع الكيفي وإن كانت هناك بحوث أخري اجتماعية تقترب من نموذج البحث الكيفي مثل البحث الاستطلاعي خاصة عندما يجري مسحاً للتراث والدراسات السابقة ، أو يتناول بالتحليل بعض الحالات المثيرة للاستبصار ، إلا أنه قد يستفيد من بعض عناصر البحث الكمي الأخرى في تحقيق أهدافه ، مثل دراسة عينه ذوي الخبرة . وقد تنطوي بحوث المستقبل بالمثل على بعض عناصر التحليل الكيفي ، خاصة ذلك النمط من البحوث المستقبلية الذى يعرف باسم البحوث المستقبلية المعيارية خاصة عند استناده إلى مادة كيفية وتحليلاته لحقب تاريخية ، هذا بينما تعتمد البحوث المستقبلية الاستطلاعية على عناصر كمية ، من أهمها المادة والبيانات الكمية ، وأساليب التحاليل الإحصائي المناسبة لها .

ويعتبر البحث التاريخي من أكثر أنواع البحوث الاجتماعية صعوبة وتعقيداً وصعوبة ، وهو ما يتضح من اعتماده على مادة تاريخية يحصل عليها من مصادر ووثائق مختلفة ، ويراعى ان تكون معظم مادته هذه من مصادر أولية ، وهى نادراً ما تتوافق ، ويحتاج التنقيب عنها إلى جهد مضن ن والبحث في أماكن مختلفة ويتطلب الحث التاريخي ضرورة تحقيب التاريخ وتقسيم الزمن الذى يغطيه البحث إلى فترات زمنية فرعية.. هذا ناهيك عن صعوبات التحليل الكيفي للمادة التي تم جمعها ، من حيث الاختصار والعرض ، والاستنتاج . ولكل هذا كان البحث التاريخي غير مرحب به ، وينفر من الباحثون ويتجهون إلى ما هو أسهل في مادته وتحليلاته ، وذلك أيضاً ، كان القيام ببحث تاريخي ينطوي على شجاعة وإقدام واختيار السير في الطريق الصعب .

والجدير بالذكر أيضاً أن البحث التاريخي ينطوي على درجة عالية من المرونة ، بمعنى إمكانية تعديل وتبديل عناصره وخطواه وإجراءاته ، وذلك في مقابل ودرجة التقنين والتحديد التي قد نلاحظها في أنواع البحوث الاجتماعية الأخرى ، والبحث الوصفي يلتزم بمبادئ الاقتصاد في الوقت والجهود والإمكانيات ، ويتوقف على توافر معرفة سابقة بالموضوع أو الظاهرة التي يقوم بوصفها ، والبحث التدريجي يلتزم بالضبط والقياس ،وتوفير مجموعات متساوية ، وظروف قياس موحدة ...إلخ ، والبحث التقويمي يظل مرتبط بالبرنامج موضوع التقييم منذ الخطوة الأولى له في وصوله إلى نتائجه . وتفوق درجة المرونة الملحوظة في البحث التاريخي ما قد يظهر من مرونة في البحث الاستطلاعي .

ثانياً: أهداف البحث التاريخي واهميته في العلم الاجتماعي:

ربما ساعدنا التعرف على استخدامات التاريخ في البحث الاجتماعي على معرفة أهدافه وأهميته فنادراً ما يناقش الباحثون الاجتماعيون قيمة البحث التاريخي ، وهم بطبيعة الحال قد يختلفون حول الكيفية التي يجب أن يستخدم من أجل تحقيق أهداف البحث العلمي الاجتماعي ، وحول مسألة مكانته المناسبة في إطار الميدان الأوسع للبحث الاجتماعي . وهناك قضيتان لهما دلالاتهما الجوهرية . يتعلق بعضها بمسائل كيفية تصور العلاقة بين الماضي والحاضر وترتبط الأخرى بكيفية تقدير أهمية الفهم التاريخي للظواهر الاجتماعية على وجه الخصوص . ونتوقع من خلال تناول العلاقة بين الماضي والحاضر الوقوف على أهداف البحث التاريخي في العلم الاجتماعي .

١- فصل الماضي عن الحاضر:

إن التصور الشائع ، وليس السائد للعلاقة بين الماضي والحاضر هو أن الماضي يفهم على أنه أشبه بعالم منفصل ، خاصة من الناحية الأمبريقية والتصورية ، أو ينعزل عن الحاضر. وفى إطار هذا التصور هناك فصل جذري للماضي والحاضر ، ويفهم الماضي أساساً على أنه مصدر أو مورد Resource ويتشكل من مستودعاً ضخماً من الأمثلة (

التاريخية) حول التنظيمات الاجتماعية والتفاعلات الاجتماعية والسلوك الاجتماعي ، ويمكن أن يستخدم كمخزن هائل والاستفادة منه لأغراض البحث الاجتماعي . فعلى سبيل المثال يمكن النظر على الماضي على انه يشتمل على معلومات امبيريقية حساسة يمكن على أساسها اختبار فروض معينة ، أو البناء عليها وإقامة تعميمات محدودة وبالتبادل ،قد ينظر إلى الماضي على أنه يشتمل على حصيلة من العينات الجديرة بالاهتمام حول الظواهر الاجتماعية .

والتي ربما تمت دراستها وبحثها على أنها (حالات) ، وربما كجزء من مشروع بحث اجتماعي يهدف إلى بناء تصور للنماذج المثالية ، أو مهيأ نحو بناء هذه النماذج . وعلى الرغم من التباينات في النسخ المحدودة في هذا التصور ، فإن كل منها يتخيل مهمة البحث التاريخي على أنها تتمثل في توفير البيانات الضرورية ، والتفاصيل التاريخية اللازمة لتسهيل اجراء مشروع البحث الاجتماعي المعنى . وقد تشتمل الأمثلة على مثل هذا البحث التاريخي :

١- بحث الحالات الماضية للانهيار الاقتصادي ومحاولة التعرف على شواهد للإحياء الديني المعاصر التي قد تخدم في اختبار الفرد الذى مضمونه أن التدهور الاقتصادي قد ينشأ صوراً من الإحياء الديني .
٢- دراسة لبريطانيا في أواسط القرن التاسع عشر على أنها حالة مثالية تمثل الرأسمالية الصناعية الكلاسيكية .
٣- دراسة المجتمعات المسيحية في القرن الثالث في أنها مثال من الطائفة الدينية ، وبناءً عليها ، يمكن تصور بناء النماذج المثالية لكنيسة والطائفة .

ومع هذه الأمثلة المشار إليها ، فسوف يعتمد النوع المحدد للبحث التاريخي الذى يمكن إجرائه على الطريقة الخاصة التي يتم بها تصور الماضي على أنه مصدر أو مورد ، وعلى الكيفية التي يفهم بها الباحث الاجتماعي مهمته ، سواءً أكانت بناءً تصويراً لمجموعة من التعميمات " تشبه القانون لتفسير التحول التاريخي والفروض المرتبطة بها ، أو تطوير ودعم المخزون العلمي الاجتماعي من النماذج والانماط المثالية .

٢- الاستمرارية بين الماضي والحاضر :

هذا الفهم الخاص للعلاقة بين الماضي والحاضر ، وبين البحث الاجتماعي والتاريخ لم يمض دون تحد . فلقد كان الفصل الجذري للماضي عن الحاضر والتصور المرتبط به والذى يعتبر الماضي بمثابة مورد وليس أكثر من ذلك ، كان موضع تشكيك . وكذلك كانت الفكرة عن البحث الاجتماعي باعتباره يجسد ويتطلع إلى نوع من الفهم ليس تاريخيا في ذاته كانت أيضاً محل معارضه . فعلى المقابل من هذه المواقف ، تمت الإشارة إلى أن الكثير من الحاضر يعد محصلة للماضي ، ونتاج لأفعال سابقة ونشاطات وحتى أحداث ، باختصار ، إن الكثير من الماضي ، ليس بعيداً أو انتهى او ذهب ، وإنما يظل حولنا يحيا وفى حالة جيدة . ومن هذا المنظور فإن العالم الاجتماعي الذى نعيش فيه أو نقطنه ليس منفصلاً على نحو ظاهر عن الماضي ، وإنما دخل في صنع العالم ويمثل وضعاً يعاد توارثه بشكل متكرر وتمر عليه الاجيال المتعاقبة ، واذلك تستمر القضية .

وإن كثير من الظواهر الاجتماعية الجارية تعد ظواهر تاريخية في طبعها ويتعذر استئصالها ، وهى تحمل على نحو متكرر علامات على جذورها ويتطلب الأمر فهمها من خلال مصطلحات تاريخية وهذه الوجهة للنظر والبديلة تتصور دوراً متميزاً للبحث التاريخي ، ليس ببساطة باعتباره يوفر شواهد مصنوعة عبر التاريخ وأمثلة يستخدمها البحث الاجتماعي ، وإنما باعتباره شريكاً كاملا في المشروع العلمي الاجتماعي الأوسع .

ومن ثم فإن البحث التاريخي قد ينظر إليه باعتباره صورة خاصة للبحث الاجتماعي ، حيث يهدف البحث على سبيل المثال ، إلى التعرف على أو كشف وتحليل الأصول والمصادر والأسس والأسباب التي تقف وراء الظواهر الاجتماعية الجارية ، فقد يعزز اهتمام البحث العلمي الاجتماعي بظاهرة القومية Nationalism على سبيل المثال ، بحث يسعى إلى التعرف على أو تتبع نشأة وتشكل قوميات الأقلية خلال عملية إعادة بناء الجوبولتيكا (الجغرافيا السياسية) ، سواء

عن طريق مؤتمرات إعادة رسم خريطة القوي في العالم ، كما حدث في فرساليا في عام ١٩١٩ ، أو عن طريق ما يتحقق من خلال الغزو العسكري وثروات الحروب .

ومثل هذا البحث يحتاج إلى أن نسير بعناية ؛ لكى نتجنب فهم الأصول المضللة ، كما يبدأ ببساطه خلال الزمن ، وفهم الأصول باعتبارها تفسيرات سببية . فقد تكون هناك مجموعة واحدة من العوامل هي المسئولة عن ظهور موقف معين إلى الوجود ، بينما قد تعمل مجموعة مغايرة تماماً من العوامل على استمرار واستدامة بقائها حية لاحقاً. لقد لعبت الأخلاق البروتستانية فيما يري فيبر Weber دورها في نشأة صورة من السلوك أدت إلى نشاطات رأسمالية ، ولكن في اللحظة التي تأسست معها هذه النشاطات ، فإنها قد تستمر تمثل المصدر الذى تدعيه على نحو مستقل . وفى الواقع ، إن الخلافات التي أحاطت بالجدل حول قضية فيبر عن أصول الرأسمالية كشفت عن بعض المثالب ونطاق سوء الفهم الذى صاحب عموماً محاولات توفير تفسيرات تاريخية وعوامل للظواهر الاجتماعية الجارية .

وهكذا يصبح من الواضح أن هناك أهداف محددة يسعي إليها البحث التاريخي في العلم الاجتماعي ، تبلورت بناء علي تصور العلاقة بين الماضي والحاضر، بحيث أن التسليم بأن الماضي منفصل عن الحاضر ، تجعلنا نعتبر التاريخ موردا أو مصدرا يوفر لنا أمثلة وعينات وحالات، يمكن الاستفادة منها في البحث التاريخي ، وفي بناء تعميمات أو اختبار فروض، أو بلورة نماذج مثاليه ،حول ظواهر اجتماعية كثيرة، مثل التدهور الاقتصادي وإحياء الديني والطائفية الدينية والرأسمالية أو غيرها ومن ناحية أخري إن التسليم بأن الحاضر استمرار للماضي، يجعلنا نعتبر العالم الاجتماعي الذي نعيشه اليوم ، تكرار لما حدث في الماضي، وأن الظواهر الاجتماعية تاريخية في طبيعتها، ويتطلب فهمها البحث عن جذورها في الماضي، وتحليل أصولها ومصادرها وأسسها وأسبابها، بمثل ما حاول فيبر البحث عن نشأة الرأسمالية في الأخلاق البروتستانتية ، وفي ضوء هذه الأهداف التي تحددت للبحث التاريخي في العلم الاجتماعي يمكن التقدم نحو بيان الأهمية التي تعلق علي هذا النوع من البحث .

لقد شغل تاريخ المجتمع الإنساني وظواهره والقوي الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية التي تقف وراء التاريخ، اهتمام رواد علم الاجتماع، بدءا من ابن خلدون واستمر هذا الاهتمام حتى وقتنا الحاضر، بل لا نبالغ في القول أنه قد أخذ في التزايد . ويأتي اهتمام المشتغلين بعلم الاجتماع والاستعانة بالتاريخ والأسلوب التاريخي بناء علي قناعة عملية بأن الفهم التاريخي لظواهر وموضوعات وقضايا ومشكلات علم الاجتماع، يعوض الكثير من النقائص في المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية، ويوفر مادة علمية تلقائيه غالبا، ويعيده عن التصنع العلمي ،الذي ينتج عن الخصائص النوعية لموضوعات علم الاجتماع وعلاقه الباحث بها قربا وبعدا وتدخلا.

أضف إلي ما سبق إنه لم يعد أحد من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية اليوم يجهل وجود علاقة وثيقة بين التاريخ وعلم الاجتماع، وهي علاقة تنعكس بالإيجاب علي كلا الطرفين. فعلم الاجتماع في جده نحو بحث تطور المجتمع البشري، من حيث عوامل هذا التطور وعملياته وقوانينه، يهدف علي توظيف نتائج هذا البحث في صناعة مستقبل أفضل تتجلي فيه إرادة البشر، ويعبر من خلاله عن حاجاتهم وقدراتهم وآمالهم، ولهذا يري الكثير أن علي علم الاجتماع ان يكون علما تاريخيا. بمعني ألا يقف عند حدود العرضي والثانوي والجزئي، والآني من الظواهر الاجتماعية وأبعادها ومؤشراتها، بل عليه أن يتعمق تاريخها وصولا إلي المطرد، والجوهري، والكلي من الظواهر، والخصائص، والأبعاد والمؤشرات، والعمليات.

ويتطلب هذا الأمر بحثا جادا عن جذور الظواهر وتشابكاتها، مما يقتضي بدوره الاستناد إلي رؤية منهجية تاريخية ، وتساعد على تتبع جذور ما يدرسه وتطوراته وتدخلاته ، وهذه الرؤية بحاجة إلي مفهومات ومقولات نظرية تساعد في وضع معايير وأسس تصنيف هذه الظواهر وتلك العمليات والتمييز بينها، رؤية دينامية ، باعتباره ظواهر الكون، ومنها المجتمع البشري، في حركة تستمر، بين المد والجزر، والانحسار والانكسار والازدهار.

والمشتغل بعلم الاجتماع في محاولته السير صوب كل هذا، لابد له من مادة تاريخية تغطي مساحتها مطلبه العلمي من الشواهد والأدلة. ومن هنا، يمكن فهم لماذا كان كل تقدم في الدراسات التاريخية بمعناها الشامل الذي يضم التاريخ والبحث التاريخي، هو ركيزة تساعد علي تقدم علم الاجتماع وبلورة آرائه وأدواره العلمية والمجتمعية. ومن ناحية أخري ، يعد كل تقدم في منهجية علم الاجتماع، بمعني المفاهيم والقضايا النظرية والإجراءات البحثية، بمثابة ركيزة تساعد علي تقدم البحث التاريخي.

إن الباحث التاريخي الذى يهتم بتحليل الوقائع والحوادث وتحليلها وتركيبها وقراءتها وجعلها تنطق وتكشف عن معناها، بحاجة إلي ما يساعده علي انتقاء الوقائع والحوادث والشواهد التاريخية، وتصنيفها وترتيبها وتحديد ما بينهم من علاقات وتشابكات. هذا الباحث يمكن أن يجد في علم الاجتماع ما يعنيه علي تطوير هذه العمليات البحثية وشحذها، هذا فضلا عن أن المعلومات والبيانات والنتائج الدقيقة التي يصل إليها المشتغل بعلم الاجتماع اليوم قد تكون من بين مادة الباحث التاريخي غدا أو بعد غد.

وهكذا قد نجد النقائص في المعالجة العلمية للظواهر الاجتماعية ، التي لوحظت علي البحوث الكميه في علم الاجتماع، وميلها إلي التصنع العلمي ، وتجزئة الحقيقة الاجتماعية، وبعدها عن التلقائية ، تعويضا عن الكثير من هذه النقائض. كما أن اهتمام البحث التاريخي بدراسة تطور المجتمع البشري والتعرف علي عوامل وعمليات وقوانين هذا التطور ، بهدف توظيف نتائج هذا البحث في صنع مستقبل أفضل لهم، يعبر عن قدراتهم وآمالهم، مما يؤكد أهمية الحاجة إليه كأساس لا غنى عنه في صياغة استراتيجيات التنمية في المستقبل.

أسئلة المحاضرة السادسة

س١/ ((البحث التاريخي يمثل نموذج البحث الكيفي الأصيل .))

اشرحى / اشرحي العبارة السابقة بالتفصيل